

الجنرال حسين (1)

أحمد بكير

مقدمة : أحوال البلاد التونسية . عصر حسين .

لم يكن للبلاد التونسية أو الايالة كما كانت تسمى ، ثروة معتبرة لا في الزراعة التي هي ميدان أهلها واختصاصهم . لغلبة البدائية على استغلال الأرض . كما لم يكن لتونس أنهار أو عيون كبيرة ولا كثيرة لمساعدة المزارع المسكين على الانتاج . فكل ما تنتجه البلاد من زيت الزيتون الذي هو أهم عنصر في ثروتها أو من الحبوب . انما هو بكد ومشقة الفلاح الذي يتصارع مع الطبيعة بوسائل عتيقة وبمحض الصدفة اذ ارحمته السماء بغيثها والا فالجفاف والقحط . واذا ما أنجبت السنة فان محصولها لا يكفي لاعاشة أهل البلد أكثر من سنة . إذا كانت الأزمات متوالية ، فالجوع والمرض ينتشران بسبب سوء التغذية أو انعدامها .

أما الصناعات فقد كانت تبعا للزراعة . فليس هناك صناعات معتبرة ، وأهم ما يوجد صناعات يدوية قد يكون فيها بعض الجمال والذوق الفني . وهذا لا يتيسر لكل صناعة . وقد يكون للاستهلاك المحلي اليومي كالنسيج اليدوي . والصباغة وصناعة الشاشية والبلغة والصياغة وهي خاصة باليهود

(1) هذا البحث أعد لمركز البحوث الاقتصادية والاجتماعية للجامعة التونسية . قسم تاريخ الحركة الوطنية .

وصناعة الجلود وما يتفرّع عنها كالسراجة وتجليد الكتب ، أو نقش النحاس وصناعاته والحدادة والنجارة والبناء وصناعة الخزف ، كلّها صناعات محلية تقي بالحد الأدنى حياة المواطن اليومية ولا تكون بحال مجلبة للثراء ولا للحياة الرخيّة .

والحياة العلمية تابعة لكل الأوضاع الاقتصادية في البلاد ، فليس هناك مدارس وكلّ صور المعرفة تنحصر في الكتابات الموزعة في كلّ جهات البلاد وعلى رأسها جامع الزيتونة والمعارف وتتلخّص في تعليم القراءة والكتابة ، والكتاتيب لحفظ القرآن الكريم كلّهُ أو جُلّه أو جزء منه ثم الالتحاق بالزيتونة أين يتعلّم الطالب فيه علوم العربية من نحو وصرف ، وعلوم الدّين من فقه وحديث وتفسير وعلم الكلام والعقائد ، كما أن المؤسسات القومية التي نسميها الزوايا تقوم ببعض الأدوار لتعليم الشباب مبادئ الدّين والقراءة والكتابة والمواعظ والسير وكل هذه المؤسسات هي خير من لا شيء ولا يمكن أن يطلق عليها اسم مدارس أو معاهد ، حتى من تبغ من أبناء البلد فإنّما كان ذلك لمواهبه ودأبه ولم يكن نتيجة برامج تربوية أو تعليمية مقرّرة والنّوابع يوجدون في كلّ عصر دون أن يكون دخل كبير للتخطيط التربوي أو التعليمي في تكوينهم . والحالة السياسيّة هي تبع لكل هذا ...

تونس بلد اسلامي عربي تابع لكل الشرق في كلّ تاريخه ، مآسيه لا تختلف عن أي بلد شرقي آخر . كذلك أفراحه . فهو من هؤلاء الذين ورثوا حضارة القرآن ودولته ونبوغ العبّاسيين وعلومهم وساهموا في اسعاد الانسانية بما قدّموه لها في ميادين الاداب والمعرفة من لدى الأغلبة إلى آخر بني حفص . ولما هرمت السلطنة الاسلامية وضاعت الخلافة من أيدي العرب وحكمهم حكام جهلة وأداروا ادارتهم سفلة السياسيين والسماصرة المحترفين وأشرف على حظوظهم المغامرون ، فكان الفساد والرّشوة ، وكان السلب والنهب والظلم في أبشع وجوهه .

كان ملك البلاد أحمد باي وربّما كان يعلم أن بلاده في عداد البلدان المتأخّرة صناعيًا واقتصاديًا وفكريًا وسياسيًا ، وكان يطمح أن يرى دولته في عداد الدّول الرّاقية ، وبلاده في زمرة البلدان المحترمة وكان يحاول أن يعمل شيئًا لذلك ، ولكنّ مستشاريه ورجال حاشيته الذين كانوا لا يهتمهم من أمر البلاد إلّا ما يقع في جيّوبهم ، وكان أكثرهم من شدّاذ الافاق والممالك المجهولي النّسب مثل خزنادر ومصطفى بن اسماعيل واحمد زرّوق وعصمان ومن لفّ لفّهم من خبثاء اليهود ومغامري الشرق مثل رشيد الدّحداح ومفالس أوربّا الباحثين عن غنيمة بهذا البلد والعاملين في ركاب محترفي السياسة ولصوص الدّولة مثل : يوسف ليفي وأخوه موسى الذان لعبا دورا كبيرا في السمسة والتجسس تارة لحساب الأنقليز وأخرى لحساب فرنسا وابن أخيه شلوموا الذان كان كل واحد منهما يلقب بلقب قائد اليهود ، وقد لعب كل واحد منهما دورا فعّالا في اختلاس أموال الدّولة وإخراجها إلى إيطاليا ، كما فعل ابن عياد في اختلاسه التاريخي وفراره من تونس ثم اعتنافه للجنسية الفرنسية واشهاره الحرب على الدّولة التونسية في محاكم باريس يطالبها كذبا وادّعاء بحقوق وهمية لا أساس لها من الصّحّة ولا مكان لها في واقع الحق اطلاقا . وبعبارة أوجز فقد تقاسم هؤلاء الشّدّاذ ما يوجد في خزينة الدّولة وقد كانت بين أيديهم . فابنا شمامة كانا القابضين الأولين للدّولة التونسية . وعلى رأس كل هؤلاء عدوّ الدّولة ووزيرها الأكبر مصطفى خزنادر الذي وإن كان سيد زمرة اللّصوص إلا أنه لم يستفد ما استفاده أعوانه ولم تسعفه الظروف أن يخرج من تونس وأن يخرج أمواله المسروقة . بل أوكّلها إلى ابن صباغ ونسيم شمامة الذين فرّا بما وقع تحت أيديهما وتركاه للتاريخ يحاسبه والأمة تلاحقه بلغناتها . وكلّ هؤلاء يحرسون على إرضاء ملوكهم كي يحافظوا على رضاهم الذي لولاه ما بقيت لهم سطوة ولا حظوة . فأحمد باي المحبّ للتجديد والتبذير يعطى ما يطلب ويجمال ويدارى وهو وإن كان من دهاة عصره إلّا أنه ضعيف يحبّ المجاملة والمدارات ويكره من يعرب إذا ألحنّ . كذلك

خلفه محمد رجل لا تهمته إلا شهواته ، وهو وإن كان له دينه وعقيدته العنيفة المتأججة إلا أنه سخيّف جاهل ضعيف الرأي غث العقل ، وأخيرهم محمد الصّادق فيه من كلّ ما يتّصف به سالفاه دهاء وجهل ونزوات وشذوذ ، وأشدّ ما ابتلت به تونس ولّا تُهَمّا الحمقى في هذا الوسط يوجد أناس مستضعفون ليسوا بالأشرار ولا الظلمة ، كما أن دورهم ثانوي أو يكاد ينعدم وهم حذرّين كلّ الحذر بودهم لو يعملون شيئا ولكنهم عاجزون ، مثل العزيز بوعتور واحمد ابن أبي الضّيّاف ومصطفى باش آغا وكان يوجد أيضا عناصر ممتازة ممّن يغارون على بلادهم ويعرفون عناصر الفساد فيها ويقاومونه أيّما مقاومة ولكن إلى حدّ ما تسمح به ظروفهم . وهؤلاء هم : خير الدّين والجنرال حسين والجنرال رستم واسماعيل السنّي وكلّتهم مملوك شركسي عدا السنّي الذي اختلف في نسبه ، كان في عداد هؤلاء محمد خزندار الذي أَرْضَى أصدقاؤه وسادته معا ، فكان الامّعة من الطراز العالي في هذا العهد وفي هذا الوسط نشأ الجنرال حسين (1) .

لا يعرف له نسب إلا اسمه . وبعضهم يزيد للتخيلية محمد ، فيصر محمد حسين . وبعضهم للمجاملة يكتّبه أبا عبد الله حسين وقد جاء في اثاره عبد الله حسين . على كلّ ، هذا لا ينقص من قيمة الرّجل وكفاه أن يكون حسينا لا يعرف تاريخ ميلاده ولا الرّقعة التي ولد عليها من الأرض ، بل كلّ ما قيل عنه أنّه مملوك شركسي بيع صغيرا ، في أسواق الرقيق باسطنبول ، لمبعوث أحمد باي تونس لهذا الغرض ، وقد كان يعتمد كثيرا على المماليك عوض أبناء البلد ، ولقد أحسن الاختيار لمبعوث الباي في شرائه للحسين وحمله إلى بلاطه ، فقصته أشبه بقصص أمثاله المماليك الذين كانوا في خدمة الدّولة الحسينية ، مثل خير الدّين باشا ورستم ومحمد خزندار وأضرابهم ... كما أنّنا لا نعرف

(1) انظر عما تقدم . صفوة الاعتبار لبيرم الخامس - ج 2 - ص 60 وما بعدها واحمد أمين . زعماء الاصلاح في العصر الحديث ص 147 وما بعدها .

وإتحاف أهل الزمان الجزأين الرابع والخامس .

الكثير عن أيامه الأولى في تونس . كيف تعلّم العربية وكيف درس الفقه واطلع على التفاسير كلّما نعرف أنّه كان شديد الصلّة بشخصين من نوابغ الأمة وعصره . هما سالم يوحاجب ومحمود قبادو . أما تعلمه للرياضيات واللغة الفرنسية والجغرافيا فقد كان ذلك في المدرسة العسكرية التي أنشأها أحمد باي بباردو . ويبدو أن المماليك يشرف على تربيتهم البلاط ويمرّون بنفس التربية . معلّمين ومؤدّبين علماء دين ولغة وأدب ثم يدخلون المدرسة العسكرية . وهكذا تربّى حسين (1) .

كان زملاؤه من المماليك الشراكسة ان تعلّموا العربية فأنّهم لا يجيدونها فهم على صفات عسكرية عالمية من شجاعة وإخلاص . قل أن تجد فيهم العارف باللغات . فخير الدّين على خصاله العالية وذكائه وسعة عقله . كان لا يجيد العربية ولا التركية ولا الفرنسية . بل كان يعرف بعض الشيء من كلّها قد تجعله يفهم مستعبيه . ولربّما كان هذا النقص من مركّباته وداعيّا إلى انطوائه أحيانا وحدّة طبعه . والعيب يسبّب حدّة الطّبع إذا كان صاحبه عظيما . لكنّ حسينا كان عالما بالعربية . يخطب بها ويكتب ويفهم النصوص الصّعبة في اللّغة والفقه والحديث ويستشهد في أماكن الاستشهاد بما يناسبه المقام وهو على تواضعه في معرفته للفرنسية فهو يفهمها ويعبّر بها عما يريد . بهذا كانت ثقافته واسعة بالنسبة لعصره .

نجدّه ضابطا عند أحمد باي تقلّب في الرّتب العسكرية إلى أن وصل إلى رتبة أمير لاي . وفي أيام محمد باي تقلّد رتبة أمير لواء . وكان زميلا لرستم وخير الدّين بل ربّما كان أصغرهم بقليل . وفي عهد محمد أخذ نجمه يلمع إذ اعتبر من كبار قوّاد الجيش ورجال الدّولة .. اختلف في أمره . هل تزوّج أم لا ؟ أما المرحوم الشيخ الفاضل ابن عاشور . فيقول

(1) انظر : محمد الفاضل بن عاشور مجلة الثريا ، العدد الثالث والصادق الزمرلي : المصلحون .

أنه عاش ومات أعزب لكن محمد الصالح مزالي يقول انه كان صهرا
لخزندار وكذلك كانياج وكل واحد من هؤلاء أغفل جانباً من حياته
الزوجية . فقد كان تزوّج ابنة لخزندار لكنه طلقها ولم تنجب له وقد تزوّجها
بضغط من أبيها ، فكان يبغضها ويبغض أباه ، وفي عهد محمد لما سمي
رئيساً للبلدية طلقها . وبقي أعزباً إلى أواخر حياته في إيطاليا . إذ عثر على
إيطالية جميلة فتزوّجها كما سيمرّ وهي التي أنجبت له طفلة الوحيدة ، لما
سنّ محمد باي قانون عهد الأمان ، كان حسين من أعضاء هيئة تدوين العهد
في ربيع الأول سنة 1274 أوت 1860 وكان نائباً بالمجلس الكبير ، مع
خير الدين ومصطفى باشا أغة وزير الحرب واسماعيل السنّي وزير العدل
والجنرال محمد عامل السّاحل والجنرال فرحات عامل الكاف والجنرال
رستم قائد حرس الباي ، وكان حسين مدير الخارجية مع لقب عامل باجة .
وهو لقب فخري أكثر منه عملي ، اذ لم يثبت أنه باشر عمالة باجة وكان
رئيس هذا المجلس الوزير مصطفى خزندار مع أصهاره خير الدين وزير
البحرية ورستم وزير القصر وحسين مدير الخارجية ، وهكذا كان المجلس
الكبير مجلس شوري حقاً اذ كلّ أعضائه معيّنين لهم صلات إِمّاماً مع القصر
رأساً ، أو مع — دولتو — رئيس الوزراء ، فما عساهم أن يقولوا ، أو ما
عساهم أن يقترحوا . كان حسين ومعه خير الدين ورستم يعرفون حقيقة
التمثيلية ولكنهم لا يستطيعون أن يبدوا ملاحظاتهم ، وهم يعرفون المجالس
النّيابية في أورباً ودورها في حياة البلاد السياسيّة وهي وان كانت مهزلة
فهي خير من لا شيء في نظرهم ولمّا وقعت قضية بن عيّاد واحتiale
على اختلاس أموال الدّولة ثم مخاصمته للدّولة التونسيّة وطلبه إياها
بتعويضات عن خدماته ، بريد من ذلك تبرير سرقة وتحيّله وبالتالي تنكّره
لجنسيته . أوفدت الحكومة التونسية وفداً يمثلها لدى محاكم باريس ليدافع
عن وجهة نظرها ويردّ القضية على محمود بن عيّاد ويطالبه بما ائتمن عليه
وخرج به تحيلاً وسرقة . كان هذا الوفد برئاسة خير الدين ومعه صديقه

ومستشاره حسين . وقد دامت سفارته من سنة 1853 إلى 1856 — أي ثلاث سنوات تمكّن حسين أثناءها من تدريب سمعه ولسانه على الفرنسية واستعمال ما تعلّمه بالمدرسة العسكرية . كذلك تنمية قاموسه الفرنسي والاطلاع على حياة فرنسا وأوروبا بوجه عام . فلم تكن الحياة النيابية عنده وهو نائب الوزير الأكبر وصاحب السموّ كنائب الشعب المنتخب في مجالس أوروبا والذي يسمح له بأن يقول رأيه بكل شجاعة والقانون يحميه . كانت هذه النيابة وهذا المجلس قراقوزا — أكثر منه مجلس شورى ونواب . ولكن اذا سنحت الفرصة فحسين لا يتردد عن أن يصدع برأيه كما سيأتي . لما تكاثرت عليه الوظائف وتشتت مجهوداته فهو عامل . وهو مدير الخارجية وهو نائب بالمجلس الكبير ثم اسندت له رئاسة المحكمتين الجنائية والمدنية بالعاصمة . ولعلّ ذلك راجع إلى درايته بالفقه من جهة وباطلاعه على القوانين العسكرية التونسية الفرنسية والتشريع العصرية . ثم لشهرته بالاستقامة في دينه وعقله . كما يبدو من كتاباته . لما أسندت له رئاسة المحكمتين استقال من وظيفة مدير للخارجية وذلك سنة 1861 — ماي . وبقي في رئاسة المحكمتين خمسة وعشرين شهرا مع المحافظة على رئاسة البلدية التي كان مقرّها في الدّار والتي تحمل اسمه إلى الآن (1) . وفي سنة 1863 — أوت — استقال من وظيفته العدلية وكأنّ خزنदार شعّر أنّ حسينا لن يكون من رجاله . لأنّ الثالث خبر الدين حسين ورستم ، نشطت عداوتهم (للمولي الوزير الأكبر) لا سيّما وقد تبين لهم أن ابن عياد لم يكن وحده في القضية وكل المال الذي سرقه انّما كان برضاه وموافقة . بل بمشاركته . حتى حملته نفسيته الصغيرة أن يطالب له بالجنسية الفرنسية . وفعلا فقد أعطت الجنسية الفرنسية لابن عياد . كما أعطت لخزنदार على شرط أن يكون مقيما بفرنسا . وبما أن خزنदार لا يستطيع الخروج فقد بقيت جنسيته الفرنسية في مخبّات — الكاي دورسي — إلى حين قدومه . وزير

(1) دار حسين . التي أصبحت المتحف الاسلامي بساحة القصر انظر عنها مقال المرحوم محمد الفاضل ابن عاشور في الثريا العدد الثالث .

أكبر ، هذه وطنيته ! ... كان حسين أكره شخص إلى نفسه وكذلك خزنदार ، ما كان يحبّه . لعلم كلّ واحد بحقيقة الآخر - والمثاليون ذوي الكرامة والوطنية الصادقة ، كانوا ولا يزالون أعداء للمخربين من السياسيين الوسخين . كثر الغمز واللمز في الأوساط التونسية . عن وطنية خزنदार وخيانتة ، وكانت الأخبار تأتيه اذ كان للرجل عيون ومخبرون فبلغه أن حسينا وخير الدين يتحدثان بما علماه من أمره أيام اقامتهما بباريس للدّفاع عن وجهة نظر الحكومة في قضية بن عياد ، وهو يعرف غيرة الجماعة ، كما يعرف نظافة أيديهما وأعراضهما . فعمل على الانتقام منهما سياسيًا ، نأزاح خير الدين أولاً وذلك بإبعاده من المجلس الكبير ومن الحياة السياسية (ديسمبر 1862 -) أخذ يشدّب أطافر حسين بتكديس المسؤوليات على عاتقه علّه يفشل في أعماله ، وأحياناً بعزله من وظيفة وتكليفه بأخري ، حتّى استقر رأيه على أن يبعده تماماً عن الحياة السياسية وذلك سنة 1867 ، وقد نشب خلاف في ذلك الوقت بين الحكومة التونسية وحكومة إيطاليا في قضية الجديدة (1) فأوصى وود قنصل بريطانيا الباي بأن يرسل الجنرال حسين إلى فلورانس للدّفاع عن وجهة نظره أمام محكمة دولية شكّلت لهذا الغرض . فكلّف حسين بهذه المهمة وكان اذاك في أوربّا . وتدخل وود وإشارته على الباي بأن يكلف حسينا بهذه المهمة كان لأمرين . أولاً . كان وود قنصل بريطانيا العام من أذكى سياسي عصره الموجودين بتونس ، كان يعرف قيمة الرجل فأرسل شخص مثل حسين ممايزين تونس . ثم عمد إلى شيء آخر وهو إحراج خزنदार وإشهاره ببعث حسين إلى الحياة السياسية من جديد ، كما أبرق إلى الوفد البريطاني يطلب منه أن يساند حسينا في موقفه وأن يطالب وزير تركيا بالوقوف أيضاً بجانب الجماعة . وفعلاً نجح حسين في مهمّته بمناصرة الأنكليز والأتراك وحتى فرنسا انضمت لوجهة نظره التي هي وجهة نظر الدولة التونسية .

الآن أن الإيطاليين أملوا على الحكومة التونسية وعلى نائبها حسين شروطا
مجحفة فأمضاها بعد استشارة الباي . وكان خير الدين رئيسا للجنة الدولية
التي شكلت للنظر في قضية ديون تونس - الكومسيون - وبرتبة وزير .
فتدخل لدى الباي لارجاع حسين من منفاه الذي استفاد منه كثيرا في تنقلاته
عبر عواصم أوروبا ... فأرجع بعد انقائه لقضية الجديدة بين تونس وإيطاليا
سنة 1870 وبعد سنة صحبه إلى اسطنبول لأخذ تسمية للصادق باي من السلطان
عبد المجيد كما جرت العادة في اقرار الباي كلما بويغ له أو عند وفاة
السلطان ومبايعة سلطان جديد . فكان حسين يصاحب خير الدين في سفرته
هذه . كما أرجعت له رئاسة البلدية عند عودته . وكان ممّن نكب معه في
وزارة خزنندار الجنرال رستم . وحسن مقرون مع محمد المرباط ويونس
الجزيري ومراد في آخرين (1) . ولما أزيح خزنندار عن منصب الوزارة
الكبرى في 22 أكتوبر 1873 وكلّف خير الدين مكانه . كان حسين بطبيعة
الحال في تشكيلته الوزارية إذ كان في عداد سهامه التي لا تفارقه . فأوكل
إليه وزارة التعليم والأشغال . وإن كان اصلاح التعليم يرجع إلى خير الدين
كذلك اصلاحاته البلدية . فإنّ القسط الأوفر في هذا كان من مجهودات حسين
رحمه الله . فهو الذي أنشأ الصّادقية . ولا يستطيع أحد أن يقول هي لخير الدين
وحده أو لحسين . فإن كان الأوّل وهو مصلح بحق . فإنّ الشّاني صديقه لا
يقبل أهمية عنه في الاخلاص للبلاد . والعمل على اسعادها . ولربّما كانت
الفكرة لخير الدين وحسين هو المنفذ لها . كما أن العكس يصحّ . وهي
تحمل اسم رجل لم يكلّفه أمرها سوى وضع خاتمه على الورقة التي أذنت
بميلادها . كذلك تبليطه للمدينة وتنظيفه لأحيائها عندما كان رئيسا للبلدية .
وكذلك اصلاحات التعليم بجامع الزيتونة ما دام هو وزير التعليم . وانشاء
المكتبة الصّادقية وهي تحمل اسم الصادق . ورئيس الوزراء المصلح الكبير

(1) انظر - كاتياح - المرجع نفسه 338 .

خير الدين الآل أن وزير التعليم حسين وكانت وزارة الأشغال من مشمولات أنظارها أملاك الدولة والغابات ، فأنشأ لتنظيمها إدارات عامة تنظم شؤونها فكانت جمعية الأوقاف . وإدارة الغابات ، وهي من مفاخر وزارة خير الدين على يد حسين . والتعليم يستوجب الطباعة والنشر ، فعمد حسين إلى إنشاء مطبعة رسمية للحكومة ، وقد أنشأها بالحفصية وجعلها مطبعة الجريدة الرسمية وقد كانت هذه الجريدة تنشر أخبار المملكة وقرارات الحكومة كما تنشر برقيات عالمية تتعلق بالسياسة الدولية (1) . وهو الذي اشترى بنفسه المطبعة من باريس . وقد التف حولها بعض الأدباء التونسيين كمحمود قابادو ، وبيرم الخامس يشرفون على المشروع ويصححون إنتاجه ، وهو على بدايته يفوق كثيرا الكثير من مطابعنا العصرية لجهل المشرفين والمصححين على إنتاجها اليوم .

وقد استقال حسين من رئاسة البلدية وانصرف إلى إصلاح التعليم وضبط أملاك الدولة والاعتناء بالمطبعة بعد أن أثار الطرقات بالعاصمة وعيها بحجر الزرّس ووظف الكناسين واعتنى بالمستشفى الصادقي أيام رئاسته لبلدية العاصمة . وكان مع رئيسه خير الدين يعملان على تطهير الأوضاع بقدر المستطاع ، فأطردوا المغامرين من الإدارة الخزندارية مثل الياس مصلي الماروني اللبناني الفرنسي الجنسية . الموظف بالقصر الملكي بباردو ، ورافو الأب والابن وهما إيطاليان فرنسيان تونسيان كذلك أولاد شمامة . شلومو ونسيم وكل هؤلاء كانوا في خدمة خزندار (2) في آخرين كثيرين من أضرابهم ، ولم تكن البلاد في حاجة ماسة إلى أمرائها أكثر من حاجتها إلى وطنيين غيورين مثل خير وحسين ، كلاهما مصلح حريص ، أحبّ بلاده وتفانى في خدمتها ولصالحها ، ولم يكن حسين بأقل أهمية من رئيسه ، بل ربّما

(1) صفوة الاعتبار . ج 2 - ص 61 -

(2) عن هؤلاء أنظر كانياج المرجع السابق وكذلك صميدة ص 119 وما بعدها .

فاقة في ثقافته وفصاحته . أما الدين والوطنه فكلاهما فاضل ، وطوبى للمصلحين ، حين يفسد الناس . إذا كان بن عياد قد فرّ ومعه أموال الدولة ، فقد ترك مكانه لصاً آخر لا يقلّ وساخة عنه . ألا وهو نسيم شمامة . كان سمساراً في شوارع تونس . ثم صار بائع أقمشة وتعرف على بن عياد فأدخله في ديوانه لمعرفته بالحساب والتدليس ، ولما رأى من نبوغه في هذا الميدان ، جعله على خزائنه ، ولما فرّ المعلم . بقي التلميذ في خدمة زعيم القوم خزندار الذي أعطاه أمانة الخزينة العامة ومراقبة المالية بعد أن خلع عليه لقب (قايد) أو عامل على أبناء طائفته . فلم تطل أيامه الا عشر سنوات حتى جمع له ثروة قدّرت بعد وفاته بقرابة الثمانية والعشرين مليوناً من الفرنكات . (1881) والتحق بسيده بن عياد وهو يحمل معه عشرين مليوناً ، وبقي بفرنسا من سنة 1864 إلى أن انتقل إلى ليفورن بايطاليا أين التحق بالمصالحين من أهل ملته سنة 1881 . بما أن حسين كان مع خير في قضية بن عياد للدفاع عن مصالح الدولة التونسية وفي هذه القضية المشابهة لها . أرسل من طرف صديقه ورئيسه إلى ايطاليا سنة 1873 للقيام بقضية ضدّ شمامة الذي اختلس هو أيضاً أموال حكومة أودعت فيه ثقتها . فأصرّ وسرق وهرب . فلاحقه حسين ووجده يقيم بين فلورانس وليفورن . فأقام الدّعوة وانبرى للدفاع عن وجهة نظر حكومته وعمد إلى طريقة أخرى ذكيّة وذلك بأن نشر في الصحف السيّارة الايطالية والفرنسيّة قضية شمامة واختلاسه لأموال الدولة التي كان بها موظفاً كبيراً . ومن العجب أن انبرى للدفاع عن شمامة محمود بن عياد كان يردّ على حسين ، لا سيّما بعد وفاة شمامة ويدّعى أنه هو وارثه وأن الوثائق التي عند ورثة شمامة إنّما هي راجعة إليه ، وحتى ما عندهم من مال فهو لابن عياد . وأن شمامة ما هو الاّ مفلس صنعه بن عياد وكوّن ثروته . لذا عملاً بالقاعدة الشرعية: العبد وما ملك يده فهو لسيده ومولاه . وقد انبرى له حسين بأسلوب عالم رصين يردّ عليه ويفضح أمره ويريه حقيقته وهذا الردّ لم يكن يتعلّق بقضية دفاع بن عياد عن شمامة . ولكن جرّه إلى مناخ أ

حاله وحدّته عن قضية خيّانته وقارن بينه وبين يهوديه ، وهذه الرّدود الجميلة جمعت في كتاب طبع في الاسكندرية سنة 1292 هجرية 1875 . بمطبعة الكوكب الشرقي

كان مصطفى بن اسماعيل أحد حظايا الصّادق باي وممّن لهم تأثير على سياسة الدولة ، وكان جاهلا ، بليدا ، وصوليا سافلا ، الاّ أنّه جميل الوجه مرح الأطراف فوقع الباي في شرك حبه وكان هذا الباي - الصّادي - يعرف بالشذوذ .

وقد عرف بن اسماعيل كيف يغريه ويتمايل بقده ، مع كثرة التعطر ، ولباس الخواتم الرّفيعه والقلايد النفيسة وتصفيف الشعر والمبالغة في تنقية الوجه مع السّواك وتزجيج الحواجب ، والكلام بترقيق الصّاد بامالتها إلى الزاي والسّين ، وامالة الالف إلى الياء ، والجيم إلى الزّاي ، والتصنّع في الانتقال من الفتحه إلى السّكون باظهار ركل من الحركتين وبالتالي كان كغانية المومسات ، أسعفه حظه وأنعس حظ تونس المسكينة التي ذهبت ضحية اللصوص والمحتالين من وزرائها ، وضحية حماقات باياتها ، كذلك من المستعمرين من عمل على افسادها كي تصبح لقمة سائغة لمبتلعها . كان مصطفى بن اسماعيل ممّن ساعد على ادالة دولة خزنदार وانتصاب خيرالدين وزيراً أولاً ، فعرف له خيرالدين عمله هذا ، ولكنه كان يعرفه من هو ، واذا كان ولا بدّ للصيّاد من صحبة الكلب ، فليكن كذلك ، فقد عهد له بوزارة البحر الذي لم يباشرها ولم يتعرّف على مكاتبها . لأنّ الذي يهّمه غير هذا يريد من الناس أن يهادوه ويريد من منصبه أن يدرّ عليه أموالاً خيالية . ويريده خيرالدين بايا صغيرا يتقاضى مرتبه ويقع في مكانه . كان لابن اسماعيل سمارته وأصدقائه وأعوانه ممّن هم على شاكلته أخلاقاً ووطنية ، رفعوا إليه أن يهودياً ثرياً اسمه يوسف بن عطار ، يمكن سلبه أمواله أو جزء كبيراً منها ودلّسوا له وثائق وحججاً وجعلوه مطلوباً للوزير نفسه ، فطلب هذا أن يعقد له مجلساً يكون هو الرئيس

وهو الحاكم لفائدته ضدّ خصمه وأظهر وثائق ومستندات وقدّمها إلى دولة الوزير الأكبر خير الدّين . فلمّا نظر فيها وبحث عن جلي حقيقتها تبين له أنّها مزوّرة .

أما اليهودي لما بلغه عزم الوزير على أخذ ماله بالباطل فرّ إلى السفارة البريطانية وكانت العادة فيمن يظلم أن يستجير بسفارة أجنبية تحميه . ولما بلغ الخبر إلى الباي طلب هذا من خير الدّين أن يعقد مجلسا للنظر في القضية وبعد أيام أعلم الباي بحقيقة الأمر . وامتنع خير الدّين رحمه الله من النظر في القضية أو عقد مجلس لها . لأنّ الحكم لا يكون لفائدة أحد وزرائه . ولا يمكن الحكم عليه ، فأمر بحفظ القضية . وكان بعض قناصل الدّول الأجنبية يشّجع على ابعاد خير الدّين ويغري به هذا الخبيث الساذج بن اسماعيل . لما لم يبلغ طيلة وزارة خير الدّين ولم يحقق سرقات أو ظالمات حنق على رئيسه وأخذ في الاشاعات الكاذبة ومحاربته بها . من كونه سلطاني العواطف فرنسي النزعة . وتألّبت قوى الشرّ مرّة أخرى وانتصرت على خير وأبعد من منصبه كوزير أوّل وعيّن مكانه رجلا طيّب القلب ضعيف الارادة . هو محمد خزندار الذي وان كان يقاسم مصطفى خزندار اسمه الاّ أنّه لا نسب ولا صلة له به وانّما صدفه التسمية . فهو وان كان وزيرا أكبر الاّ أنّه تسمية لا فعلا . فالواقع أنّه بن اسماعيل الذي يدير سياسته وبأمره وينهاه.. لما بلغ الخبر حسينا وكان بين فلورانسا وليفورن يلاحق شمامة ويردّ على ابن عياد أباطيله .. تضايق من خبر عزل خير وانتصار عناصر الشرّ في البلاد . ولكنه لا يستطيع أن يقول شيئا فالرجل بقي وزيرا كالعادة وهكذا بقي مدّة وزارة محمد خزندار 22 جويلية 1877 — 24 أوت 1878 — حتى جاء بن اسماعيل وأخرجه من الوزارة كما سلبه ألقابه ونياشينّه . وكان حسين يحتقر بن اسماعيل ولا يعيره قيمة وهذا ما جعل في نفسه عليه إحنة . أدّت إلى فصله عن الوزارة وسلبه لرتبه العسكرية ونياشينّه مدّة وزارة بن اسماعيل . 78 — 81 حتى جاء محمد خزندار ثاني مرّة فأنصفه بعض الانصاف . ولكنّ الرجل تحطّم

نفسياً وعصبياً ودبت إليه الأمراض . وكان مدّة اقامته بايطاليا قد تعرّف على ايطالية جميلة من أسرة نبيلة تدعى انجيلينا بر كوتشي فأعجبته وعرض عليها الزواج وتزوّجها وكانت له منها ابنة أوصى أن تربي تربية اسلامية تونسية وأسمّاها فريدة التي آل أمرها أن كانت زوجة المرحوم علي باش حانبة وقد أنجبت ابنة هي اليوم زوجة الدكتور محمد حجوج ولم تنجب هذه أطفالا ، فهي آخر بقايا حسين

كان يصحبه في اقامته بايطاليا صديقه وأحدُ شيوخه هو سالم بوحاجب الذي تردّد مرات بين تونس وايطاليا . أي بين الباي وحسين . كما كان يرافقه ولا يفارقه عمر بن الشيخ سالم بوحاجب وكان صديقه ، واليه أوصى بتربية ابنته فريدة ، وهو الذي تزوج أمها بعد وفاة حسين وأنجبت له طفلة أيضا وعاد بالبنتين وأمهما إلى تونس بعد عام ونصف من وفاة حسين الذي وافاه الأجل في مدينة فلورانس جويلية 1887 وقد أصيب بالذّبحَة الصّدرية وبأمراض جلدية سببت له قروحا في رجله . رحمه الله تعالى ، وحمل على بارجة حربية إلى اسطنبول أين صحبه عمر بوحاجب إلى مرقدّه الأخير وبقي عاما ونصفا ثم رجع بالأسرة إلى تونس .

آخر أيامه بايطاليا

كانت آخر أيامه بايطاليا ، أيام بؤس وشقاء ، فدولته لم تعترف له بخدماته وبما قدّم لها . كما أن بلاده فقدت استقلالها ولم يبق وزيراً للدولة ، بل أصبح موصا عليه كمن لا يحسنُ التصرف في شؤونه وراجع تاريخ بلاده ومرت الأيام في مخيلته ورأى سفه الملوك وخيانات الوزراء وسوق الجهل النافقه وكساد المروءة والعقل ، وقال في نفسه : ما وقع لا مناص منه ... انتصاب الحماية على بلاده مسّ بكرامته وكبريائه وبلغه أن عكسيّة القوم خرجوا من تونس هائمين على وجوههم ، منهم من التحق بدار الخلافة ومنهم من

التجأ إلى مصر ومنهم من ذهب إلى المدينة مجاوراً متصوّفاً ، ففعل ذلك فعلته في نفسية الرجل حتى أصابه السكر ، وتحطمت أعصابه وأصابته حكة جلدية وضيق تنفس ثم ذبحة صدرية أودت به ولم تكن أحواله المادية بأحسن من أحواله النفسية ، فقد فرغ جيبه واحتاج إلى التدخين وأمضى اعترافات بالدين له إلى أحد المرابين بايطاليا اسمه روزا يعترف له فيها بخمسة وأربعين ألف فرنكا ، اقتصت من تركته بعد وفاته . وفي آخر أيامه كتب إلى وكيل أملاكه ابراهيم بن زينب يعلمه بمرضه وسوء حاله ويطلب منه ان يتدخل له عند بقيّة أصدقائه كي يتدخلوا لدى السلط حتى تسمح له بالعودة إلى وطنه لكن الإقامة العامة لم تعر طلبه اهتماما . فحوّل وجهته إلى اسطنبول ولما بلغ خير الدين وفاته تدخل لجلبه . ودفنه بعاصمة الخلافة (1) .

ولمّا انتقل حسين إلى رحمة الله ، قام الورثة وهم عدّة يطالبون بمخلّفه . فزوجته وابنته وهما الوارثتان الشرعيتان أخذتا نصيبهما الذي وقع أكثره في يد عمر بوحاجب بحكم مكانه منهما . فهو زوج انجلينا أرملة حسين وهو وصى على البنت فريدة . كما أن الباي الصادق ادعى أنه عاصب لما يتبقى بعد اخراج الثمن للزوجة والنصف للبنت . وقال محمد الفاضل بن عاشور انه أوصى بماله إلى العجز والمجاريح من عساكر الخلافة العثمانية . وقد انفرد بهذا الخبر وحده . ولو صحّ هذا فقد كانت الوصية شفووية في آخر أيامه . ولربّما قالها لمن حضر وفاته . ولم نعر في ملفّ حسين وهو غني بالوثائق على هذه الوصية وحتى لو أوصى بماله للعجز والمجاريح من عساكر السلطان وهو أمر مقبول عقلياً فلم يكن الباي الصادق يسمح باخراج مال الحسين إلى السلطان لا سيّما وقد أصبح عليه سلطان اخر هو حاميه . فلا الحامي ولا المحمي يسمحان باتمام الوصية . ولا بد أن حسينا كان فكّر في الأمر وهو يعرف أن الوصية لا تتم . فلا أظنّ أن خبر الوصية

(1) انظر رسالة ابراهيم بن زينب بتاريخ 1887/9/19 - بقسم الوثائق التونسية رقم 7969 - وانظر ملف 107 مكرر

صحيح ، وقد كان معه محاميه الايطالي الجنسية والتونسي الأصل وهو المعروف بحبّه لبلاده وكرهه لفرنسا . وكان يكبر حسينا ويدافع بكلّ اخلاص عن وجهة نظره ضدّ المحتال شماسة ولقد سلّمه بعض من عليه دين لحسين مائة وثلاثين ألف فرنكا بعد وفاته فأبلغها للباي الصّادق ، وهذا الرّجل ، هو سانتيلانا (1) لم يذكر اطلاقا وصيّة الجنرال بماله لعساكر السلطان ، وكان شديد الصّلة به ، فقضية الوصيّة ربّما كانت اشاعة انتشرت في الأوساط التّونسيّة ، ولربّما نسبها أصحابها إلى عمر بوحاجب وان كانت ليست في صالحه ، الا أن هناك برقيّة في قسم وثائق الحكومة رقمها 7940 .

صادرة عن ماسيكو المقيم العام لفرنسا بتونس مؤرخه بالسادس عشر من شهر جويلية سنة 1888 وموجّهة إلى سانتيلانا في فلورانس ، وفحواها غامض لا يعرف ما يريد المقيم من سانتيلانا وخلاصتها : اتصلوا بعمر بوحاجب وقلّوا له نيابة عنّي أن يوضّح الشائعات المنسوبة إليه ولقد وعدني أن يساند عملكم . الخ وخلاصة القول في الوصية أنّها لم تثبت لحدّ الان ... ولقد جاء إلى الباي أحد المغامرين وأعلمه أنّه أعرف النّاس بأملّاك حسين وأنّه وحده يستطيع ضبط الثروة وان تفضّل سموّه بتكليفه بذلك أحصاها له وأعطى للورثة مالهم وللملّك ماله ، وقد وافقه الصّادق باي على طلبه لما رأى من مهارته وحسن هندامه ، وهذا الرّجل لم نعثر على اسمه كاملا وكلّ ما جاء في حقه هو أنّه كان يتردّد على الجنرال ويستعطفه فكان حسين رحمه الله يعطيه ويساعده أحيانا بمبالغ كبيرة ولما توفّي ادّعى المعرفة بأملّاكه وجاء يطلب الوصاية عليها وقد احتجّ ابراهيم بن زينب مقدّم أملاك المرحوم حسين على هذا المحتال وكتب في ذلك إلى الكاتب العام للحكومة التّونسيّة يعلمه بكذبه وتحيله وهو يسمّي الماlich ولقد ترجم الكتاب مع ذكر اسم الرّجل الماlich بالفرنسية كما هو بالعربيّة (1) وفعلّا فقد كلّفه الباي بإحصاء

(1) ملف حسين . 107 مكرر بالوثائق القومية .

المخلف وبيع منابه منه ، على جُعْلٍ قَدَرُهُ خُمسة بالمائة فما كان منه الا أن
باع أراضي واسعة بأحواز تونس لا سيما بحلق الوادي بريال واحد للمتر
المربع لأقربائه وذويه .. وهكذا ذهبت مخلفاته بين المحتالين والمدّعين .

آثاره

لو لم يكن حسين رجلا عسكريا وسياسيا . لكان عالما أديبا من طبقة
بیرم الخامس أو سالم بوحاجب أو محمود قبادو . فالرجل في الصحافة
وكأنه صحفي ماهر محترف لا يعرف غير الصحافة . ويكتب في التاريخ
والأدب والسياسة وكأنه صاحب الأدب الكبير . وما بقي بين أيدينا من آثاره
الأدبية يوضح ما قلناه لقد ترك حسين آثارا . وصلنا منها كتابه حسم الإلداد
في نازلة محمود بن عياد يقع في ثمانين صفحة من الحجم الصغير (1) .
موضوعه كما يبدو من تسميته يردّ فيه على محمود بن عياد الذي يبدو أنه
هاجم الجنرال حسين بكتابته في صحف ايطالية . عندما تصدّى حسين
للدّفاع عن وجهة نظر الحكومة التونسية ضد قضية نسيم شمامة . انبرى ابن
عياد للدّفاع عن شمامة ومهاجمة الحكومة التونسية في شخص الجنرال حسين .
فكان هذا يردّ عليه بما يستحقه من الحجّة والمنطق ويكيل له الصّاع قفيزا والحسنة
بعشر من أمثالها ، ويبدو أنّ هذه المقالات كانت تنشر بالايطالية في الصّحف
السيّارة . كان يساعده على ترجمتها للايطالية - سانتيلانا - وفي نفس الوقت
تحرّر بالعربيّة حتى اذا ما انتهى الموضوع أرسلت إلى الاسكندرية فنشرت
في وقت قريب . يفتح حسين موضوعه بقوله : أمّا بعد فقد بلغني في هذا
اليوم وهو الرّابع والعشرون من شهر التّاريخ مكتوبكم المؤرخ بثالث الشهر
المدرج بالجرنال الايطالي في اليوم العاشر منه وعلمت أنّ تأخيرته لم يكن

(1) طبع بالأسكندرية 1875 تقدم ذكره رقمه بالوثائق التونسية 159 .

بأختياركم ، كما أنني علمت منظوقه ومفهومه ، لكن أناشدكم الله ، هل أنتم قاصدون بذلك قول الحقّ وتجتشم الصدق أم أردتم ترويج الأباطيل بما تقولونه علينا من الأقاويل ، ونرجح الثاني ما نرى منكم مع صاحبكم القديم (نسيم شمامة) من تجديد المحالفة بعد اظهار الثفرة منه والمخالفة . لكنّ الانسان لا ينسى المعاهد القديمة وان كانت مراتعها وخيمة . كما قيل :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحبّ الاّ للحبيب الأول

واعلم أنّ الكذب أعظم شيء يشان به العرض ، ونحن لا ندافع عن أعراضنا بما يشينها وانكم تلتمسون بترويجاتكم المشار إليها طريقا موصلا إلى أخذ مال جديد وأنكم تحتفظون على المنهوب القديم الذي معظمه الحقيقة من حقوق بيت المال التونسي لـ أنصفتم ، ولكن حبك الشيء يعمى ويصم ، وعندكم من خزائن الأموال ما يروج زيتوفكم عند عامة الناس ، كما قيل : انّ الرقن تغطى أفن الأفين ونحن لا نغطى معائبنا البشرية الاّ بالمحافظة على أعراضنا وحاشا العدل الالاهي أن يفضلكم علينا يوفرة المال والعرض معا وحيث كنت أنا المخاطب بكتابك من بين سائر متوظفي بلادنا ترجحت من بينهم أن أكون المتصدّي للجواب مستعينا برّب الأرباب فأرجو أن تقبله منّي جواب شخص يدافع عن الحقّ بالحق لا بداعي الحميّة والهوى ، ولا تعتبره جواب متوظف يحامي عن دولته غير مبال بكون سهمه أشوى أو شوى . فأنا المطالب وحدي بكل ما ينشأ عن جوابي هذا لتسمع بعض تاريخك في حياتك وتبقيه للأبد ، وان كنت أعلم أنّ الزمان شاهد أمين . يكشف عن حقائق الأحوال ولو بعد حين . فمهما تكن عند امريء من خليفة : وان خالها تخفى على الناس تعلم .

وكأنني بك حين ثقف على جوابي وثقف حنظل خطابي ، تقول : انما موضوع البحث ومجال الجدل بينك وبين الحكومة وهو ما يتوصّل به إلى تعيين الطالب والمطلوب من الجانبين بمقتضى الحكم الصادر من المحكمين

بدون التفات إلى أصل النازلة . ولا إلى أصل تفاصيل تصرفاتكم في الولاية .
لكنني أقول . انني لا أقبل منك والحالة هذه قصر الكلام على الفروع مع
الإغضاء عن أصله . بل انني أطالبك بلسان الحق العام برد جميع ما أخذته
من بلادنا على وجه الظلم والعدوان . وأدعوك إلى التحاكم في ذلك بمقتضى
شريعة البلاد وعاداتها . وهذا الأمر يوجب علينا ديننا . فأننا كما نطالب
بفروض العين نطالب بفروض الكفاية التي اذا قام بعضها بها سقطت
عن الباقي . والا يَأْتِىُ الْجَمِيعُ . ونازلتلك هذه لم تزل كلاً على رقابنا لم نوف
فيها حق مملكتنا وسكانها ثم يأخذ حسين في وصف نفسية الرجل وهي
نفسية المحتمل الباهت الذي يحاول قلب الحق باطلا والباطل حقاً باجهاده
نفسه أن يقنع الناس بكذبه وبهتانه يقول حسين : حيث أنك ممتن بجهد
الحق ونفسه به مستيقنة ويذكر نشأته كيف كان ابن عياد مفلساً ثم
دخل في خدمة الباى احمد الأول . الذي ساعده بعد سنوات قليلة من العمل
معه على دفع ديونه . وبعد سنوات خرج من تونس ومعه أموال كثيرة . فمن
أين له هذا ؟ ... لو لم يكن سارقاً . وينظر حسين ابن عياد بنسيم شمامة الذي
قال عنه ابن عياد في الدفاع عن قضيته نقول ابن عياد : ان ما اكتسبه نسيم
شمامة انما هو في الواقع راجع إليه . ويُجِيبُ حُسَيْنُ بِأَنَّ شَمَامَةَ هَذَا كَانَ
فِي خِدْمَةِ بَنِ عِيَادٍ وَمِنْهُ تَعَلَّمَ السَّرْقَةَ وَإِنْ كَانَتْ فِي طَبِئَتِهِ الْإِثْمُ أَنَّهُ أَزْدَادَ
مَهَارَةً فِيهَا بِالْعَمَلِ مَعَهُ وَتَحْتَ أَمْرِهِ . يقول حسين :

وحيث أنك ذكرت خيانة نسيم من قلّة كسبه في مبدأ أمره .
ثم فيضان ماله يعود لك على خلاف المعتاد في نحو الأموال فهذا المقياس
نفسه يتوصل الناس إلى استنتاج خيانتك أيضاً حيث كنت في مبدأ أمرك
عاجز عن دفع ديونك ثم فاض المال عليك في مدّة يسيرة . بكيفية لا يعلم
لها نظير ولا مثال . ولا يتسبّب مثلها الا عن السلب والنهب باليمين
والشمال . وقد أوسعه سخريه لاذعة لما ادّعى أنه من سلالة عربية أصيلة
ومن أحفاد الفاتحين لأفريقية والأندلس ثم خرج أجداده من الأندلس ونزحوا

إلى طرابلس ومنها إلى جربة مستشهدا على ذلك بأقوال ابن خلدون ، فردّ عليه حسين بأنّ ابن خلدون لم يكتب عن خروج المسلمين من الأندلس بعد استيلاء الفرنج عليها ، ونصححه بأن يستشهد بغيره ، لأنّ ابن خلدون مات قبل هذه الحوادث ولم يكتب بعد موته شيئا . ثم يعود حسين إلى وصف حال البلاد وكيف تألّبت عناصر الشرّ عليها ، فيقول مخاطبا ابن عياد : إنّ خراب بلادنا ، كان على يد ثلاثة أشخاص وأبنائهم أعوان السوء ، وهم : محمود بن عياد وتلميذه نسيم شمامة ورئيسهما مصطفى خزندار ثم لما قبض الله تعالى للآيالة من يأسو عليها ويسدّ خللها ، تكالبت عليه أعداء الآيالة من أحماء المعزول (خزندار) وخلفائه وهم شرذمة من اليهود والنصارى وبقية من قوم عاد وثمود لكي يمنعوا مريد الإصلاح من ترميم ما خرّبوه وجبر ما انتهبوه حيث أنّ فؤادهم في استبقاء الإدارة على الاختلال والآيالة على الخراب وسوء الحال .

اذ بالأقلّ يحملون شيئا من حجارتها وأنقاضها لبناء قصور لهم ومنازه ... أفلا يحزنكم أيّها المعتدون الذين هم على الانتهاب معتادون خراب بلادكم التي هي منبتكم ومسرح أولادكم وتربة آبائكم وأجدادكم .

لقد أسمعت لو ناديت حيّا ولكن لا حياة لمن تنادي
ونار لو نفخت بها أضاءت ولكن كنت تنفخ في رماد

فكنت يا ابن عياد ، أوّل عاد ، سعى في خراب البلاد وانه لينطبق على ابن عياد قول الله تعالى : وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُ الْخِصَامِ ، وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُ : اتَّقِ اللَّهَ ، أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (1) .

وأسلوب حسين أسلوب رجال الأدب الكبار كما يبدو من هذه العينات التي أوردناها وهو إلى جانب هذا سياسي كبير من أذكاء رجال الدولة في حكومة خير الدين ان لم يكن أذكاهم على الاطلاق ، ومن خلال كتابه هذا نعرف للرجل قيمته . فهو عارف بالحساب والقانون واللغة والسياسة الدولية واللغات الأجنبية لا سيّما الفرنسية والاطالية . ولاشك أنه كان يعرف التركية وان لم يظهر عليه فيما كتب الا أنها كانت منتشرة في الأوساط العسكرية في ذلك الحين ويستمر حسين في الحديث عن ابن عياد

ويصف نفسيته وسرقاته ووقاحته وكيف كان يأخذ الرّكاة والضرائب الاجبارية من الحبوب كالقمح والشعير والفول والحمص يأخذها من النوع الجيد ثم يبيعها جيّدة بأسعار مرتفعة ويشتري عوضها حبوبا رديّة بأثمان زهيدة وقد جعل لذلك مكتالين مهرة ، اذ كانوا يوفون الكيل عند الاستلام من الرعايا أو من التجار والذين يبيعون الحبوب للحكومة بعد بيع الحبوب الجيدة وتعويضها بالردئية ثم يطفقون الكيل عند بيعه للحكومة بعد خلطه بالتبن والحصا ورديء الحبوب . فتكون عملياته تربح 275 % - وكان يتقاضى من الحكومة عشرة الاف ريالاً في الشهر . فرفعها إلى خمسة وسبعين ألف ريالاً (1) وحسين يحدّثنا عن ادعاء بن عياد الكاذب فيما ادّعا على الحكومة التونسية . وعن كيفية اتجاره في خزائن الدولة وبيعه بالتطفيف بعد شرائه بالاستفتاء وغلته الرديء في الزيت الجيّد وبيعه كل ذلك للحكومة لاطعام جيشها . ثم اتجاره في العلف والخبز الذي كان للدولة وحدها الحق في الاتجار فيه . وقد أنشأت مخازن لذلك جعلت تحت اشرافه . كذلك تجارة الجلد وكلّ هذا كان في الأنظمة الاسلامية . أي أن الدولة لها وحدها الحق في الاتجار في الضروريات كالدقيق والملح والزيت والصّابون وما لا بدّ منه

(1) تعادل اليوم 45 ديناراً - ولكنها في ذلك الوقت كانت تمثل ثروة طائلة - انظر ص 32 من الكتاب .

في الحياة اليومية عملاً بقوله تعالى : كي لا يكون دولة بين الاغنياء منكم .
أي مقاومة الاحتكار لكن ابن عياد قاوم كل احتكار ، الا احتكاره هو .

وخلاصة القول في الكتاب أنه حافل بسيرة ابن عياد المشينة والنّاظر في القضيتين ، قضية ابن عياد وقضية نسيم شمامة يرى ما كانت عليه أحوال البلاد التونسية من غفلة الحاكّمين وبلادة عقولهم ، كذلك من فقدان الضمير الوطني عند أغلب المشرفين على حظوظ البلاد ، فما كان يهتمهم شيء أكثر ممّا كانت تهمّهم مصالحهم الخاصة ثم ازدراء الحكومات الاجنبية لحكومة تونس فقضيّتي ابن عياد في باريس وقضية شمامة في ايطاليا ، حكم في كلّ واحدة لفائدة تونس ولكنّ تونس لم تأخذ من القضيتين الاّ نسخة الحكم أو ما وقع تحت يدها من أملاك اللصّين والتي هي في الواقع راجعة لها شرعا ، وفي قضية شمامة التي لنا ملفّها بالاطالية والفرنسية والعربية نرى تلدد المحاكم الأجنبية في الحكم على المتهمين من رعاياها اذا ما طولبوا من طرف أجنبي فلمس التلدد وكثرة التعقيد والتماس الأعذار القانونية بوفرة الأوراق وطلب الحجج وكلّها سفسطاء ، والمسكين حسين مندوب الحكومة التونسية يتحمّل هذا التلكأ بصبر وثبات ويجيب عن طلبات العدالة المزيّقة إلى أن انتصر الحقّ على الباطل بمعجزة وحكمت المحكمة لفائدة تونس ، والنّاظر في هذين القضيتين يشعر بخجل كبير ازاء موقف هذين الدّولتين من القضيتين من قدرة على البهتان وقلب الحقائق ومساعدة المحتالين ، ثم ان ابن عياد صار فرنسيّاً مثاليّاً لا فرق بينه وبين كل فرنسي آخر ، ونسيم شمامة منحه ملك ايطاليا فيتوربو عمّا نويل الثاني لا حقّ الجنسية أو اللّجوء ، بل نبّله — أي اعطاه لقب النبلاء الأشراف لاستقامته

ومن آثار حسين فصل كتبه في الرائد التونسي بتاريخ 29 ربيع الأول 1277 — الموافق الرابع من أكتوبر 1860 — العدد الرابع كان حسين يرافق الصادق باي في رحلته التي قام بها إلى الجزائر يوم 15 سبتمبر لمقابلة الأمبراطور

نابليون الثالث وأداء زيارة ودّ وصداقة للملك فرنسا الذي جاء يزور الجزائر .
(ولربّما يدرس كيفية امتداد سلطانه على الأقطار الثلاثة كما تبين بعد) فأخذ
الباي حاشيته ومعاونيه وذهب ليحييه . وكان في صحبتهم حسين الذي كان
أمير لواء ومستشارا للخارجية – كلّفه خير الدّين وزير البحر اذّلك بأن يكتب
له عن الرّحلة من أوّل خروج الوفد إلى رجوعه . فوافاه بهذا التقرير الضّافي
تحدّث فيه عن كلّ ما رأى وما سمع أثناء هذه الرّحلة . يتبدّى الفصل
هكذا

سيدي ومستدي وزير البحر ومن كمالاته تفوق الحصر أدام الله اجلالك
وحرص كمالك . أمرتي وأمرّك واجب الاتّباع بأن أكتب لعزير جنابك ما
أشاهده في وجهتي هذه إلى مدينة الجزائر في خدمة مولانا المعظم سيدنا دام
علاه من كمال تلقى جلالة امبراطور الفرنسيّس وأعيان رجال دولته الخ (1) ...
وللجنرال حسين (2) مقال اخر هو خطابه في المجلس النيابي أو المجلس
الكبير كما كان يدعى . وهذا الخطاب زيادة عن قيمته الأدبية العالمية هو
وثيقة تاريخية عن حركة اليهود في تونس وعن موقف رجال الدّولة منهم .
فمنهم من يرى اكرامهم واعطائهم حقوقهم وحقوق النّاس ومنهم من يقف
موقف حذر واحتياط . وكان ابن أبي الضيّف صديق شمامة يرى الرأى
الأول وأظنه مغرور أو مغفل في موقفه هذا . لا سيّما وأن قضيّة نسيم وابن
أخيه شلومو الشّمّامين لا زالت جديدة فكيف يتخذ هذا الموقف من أناس
عرفهم البعيد والقريب والغبيّ والذّكيّ بعدم الصّدق والأمانة ونظر القيمة
هذه الوثيقة ننشرها كاملة .

أيها السادة الكرام وقفت هذا الموقف الخطير لا دفع عن نفسي وعمّن
كان رايه كرايبي فيما اقتضاه كلام الشيخ الفاضل الهمام المفخم أمير الامراء

(1) الرائد التونسي وانظر اتحان أهل الزمان - ج 5 - ص 41 -

(2) أعارنيه صديقي الاديب الفاضل الدكتور الطاهر بن عز الدين ، مشكورا .

ووزير الشورى سيدي أحمد ابن أبي الضياف من نسبتنا إلى مخالفة القانون المحلوف عليه يكتبه المكتب في الاسبوع الماضي الذي قال فيه كتبه بمقتضى الفصل السابع من قانون خدمة المجلس ، مشيراً إلى ما في الفصل المذكور من ان كل واحد من اركان المجلس إذا ظهر له رأي في مصلحة الوطن عليه ان يبيد دليله بالنظر وبالكتابة ليقع فيه نظر المجلس ثم ان كان ما تسمعونه مني الان حسناً فاني أحمد الله الذي ألهمني الصواب وان كانت الاخرى فاني استغفره سبحانه وإليه المرجع والمآب ففي مقدمة الخدمة الداخلية لهذا المجلس المحترم ما نصّه : ولا يأنف من لم تظهر للمجلس حجته من عدم قبولها فالتفاوت بين مدارك العقول في الفطرة الانسانية الخ .

ولا يخفي ما في ذلك من تحريض كل من انتظم في سلك هذا المجلس الرفيع على ابداء ما نقدح في رايه غير مبال برد مقاله وعدم التسج على منواله هذا وقد عزّ علي موقف المناقش في فهم من يجب عليّ احترام رتبته وتوقير علمه وشيئته لكنني لم أجد بدا من الوفاء بعهده الله واحترام الحق الذي هو أكبر من الجميع فأستسمح جنابه العزيز فيما يسمعه مني مما يبعد استقامة فهمه فيما نسبنا إليه واصابة رايه فيما عول عليه ولا يعزب عن شريف أنه يرخص للمدافع ما لا يرخص للمدعى كما نستسمح جنابكم فيما عولت عليه من التطويل وبعد هذا اصلحكم الله واصلح بكم البلاد والعباد فاني تصفحت كلام الشيخ المشار إليه فوجدته يقول انه عرضت له شبهة تقتضى مخالفة القانون المحروس بهذا المجلس والمخالفة في حق غيره لكن سوغ له الكلام فيها ما بالفصل السابع والثمانين من قانون الدولة حيث قال عاطفاً على ما هو مسوغ لجمع الرعايا : والشكاية للمجلس الاكبر من عدم اجرائها أي القوانين ولو في غير حق الشاكي ومحصل هذه الشبهة ان رعايا المملكة صنفان مسلمون ويهود فكل منحة دنياويه يستحقها المسلم من أهل المملكة يستحقها اليهودى إلى كلام الشيخ الذي انحصر في اربعة مقاصد .

أولها انه يرى لليهود حقا في هذا المجلس استنادا على قاعدة التسوية
فلهذا يسأل لماذا لم ينتخب منهم في هذا الانتخاب الجديد .

ثانيها انه يرى ان عدم الانتخاب منهم موقع في مخالفة القانون المحكوم
عليه .

ثالثها انه يرى لزوم الانتخاب منهم على كل حال لتوقيف حكم المجلس
الاكبر في نظره على وجود عضو يهودى فيما اذا كان المحكوم عليه يهوديا .

رابعها انه يرى لزوم وجود اليهودي في هذا نظرا للسياسة اذ بذلك
تنقاد الاجانب في نظره للدخول تحت احكام البلاد .

فكفكف ايها الفاضل غرباء واستوقف سيرك ودع العصا بلحائها
والدلاء برشائها فاننا من خلفها وورائها فقد علمت والله يعلم اني لست ممن
يتغالى في الدين أو بقول على الله غير الحق المبين وحسبى ان أغنم صلاح الوطن
والبلاد على يد من كان من العباد ومع هذا فاني ارى في كلامك فوات القياس
وبنيان تلك المقاصد على غير اساس نسلم لك ان كل منحة دنيوية يستحقها
المسلم من أهل المملكة يستحقها اليهودي بناء على قاعدة التسوية المصرح بها
عهد الامان ولكن لا نسلم لك المقاصد الاربعة التي بنيتها عليها . فهلم ايها
الفاضل ترسم اساسا صحيحا قبل الشروع في المجادلة ونجعل بيننا حدا لا
نتجاوزه نحن ولا أنت قال صاحب القانون في فصل 44 من قانون الدولة
والثلثان أي من اعضاء المجلس الاكبر تكون من أهل المملكة ممن يشهد لهم
بالكمال والوجاهة فقد اشترط في العضو هنا الكمال والوجاهة واني أسائل
اولا جنابك اذا كنت انت وحدك المختار للاعضاء هل كنت تختار الامثل
بمعنى انك تختار اولاً من يكون في نظرك واوجه ثم من هو دونه ام تعدل
عن الفاضل وتختار المفضول لا نشك ان جنابك لا يجب الا بالأوّل . ثم
هل اشترط صاحب القانون ان ينتخب من كل من الجنسين خياره وان وجد
في الجنس الاخر من هو اكمل منه واوجه فلا اراك تقول بذلك لانك القائل

اناط الاستحقاق بالاهلية والمروءة الانسانية ولم ينطها بديانة ولا جنسية وقلت في موضع آخر فاناط الاهلية بالنفس لا بالجنس ثم على هذا نسائل هذا المجلس المحترم ونناشدهم الله هل يعلمون ان في يهود بلادنا الذين تجرى عليهم احكامنا من هو اولى وأصلح بهذا المجلس واوجه في نظرهم ممن وقع عليهم اختيارهم في هذه المرة وعدلوا عنه لاجل دينه . فاذا قالوا اللهم لا فأقول يعلم الله اني كذلك فما علمت من هو اولى ممن وقع عليه الاختيار . فان قلت لم تجل فيهم الافكار على اني يعلم الله تشخصتهم قبل الاختيار وعنده ولا اراك نسيت مناقشتي فيهم بالمجلس الخاص ولي على دعوى شهود بهذا المجلس . لكن دع هذا كله فاني قد علم ربّي لا أنظر في مصلحة البلاد بعين الشهوة والغرض النفساني ان الهوى ما تولى يصم او يصمّ ولكنني انظر بعين امانتي وعقلي فان اصبحت حمدت الله وان اخطأت فمثلي يعذر وانا القائل في مثل هذا المقام ان من كمال مروءة المرء وديانته ونصحه في خدمة الوطن انه اذا أحس من نفسه ما يعوقها عن واجب اتقان الخدمة يقدم تنمية منفعة الوطن على ما يترأى انه أنفع لنفسه . فان رايت سيدي ان في يهود بلادنا من هو اولى من بعضنا او من بعض من وقع عليه الاختيار وان ابت نفسك تعيين المفضل قنعنا منك ببيان العدد ثم تقع القرعة بينهم فاذن لم تقع منا والحالة هذه مخالفة للقانون وليس لك ان تشتكي من الإجهاد . وأما قولك : أي عرض يبقى لصنف من الرعية . لم يعتبر في منحة استحقاقها اخوة في الرعية والنسبة فالعجب ممن يستند تارة للصنف واخرى لمناظر النفس . والواجب والاقتصار على الامر الثاني معتبرا فيه الاهلية وان قال لنا قائل ذلك الكلام فاما ان نجيبه بقولنا لا تفضلوا انفسكم على بقية الرعية من أهل المملكة أو نقول لهم نحن مؤلفي القانون إلى الان لم تفهم ألفاظه فكيف تفهمونه أنتم ولغتك مغائرة للغتنا ولا أقل من أن يكون الكمال المشروط في أعضاء المجلس بفهم ألفاظ القانون كما يشعر به فصل 36 من قانون الدولة ولا أشك أن هؤلاء الذين وقع عليهم الاختيار يفهمون القانون أحسن من فهمكم فيبقى الامر ، إلى ان يحصل التساوى في

الفهم وعند ذلك يقضى الله أمرا كان مفعولا . فخرجوا الان أن يكون بهذا بل بحول الله شبهتك قد أزيلت ولعلك تعارضني بقولك لماذا قلت لمن توقف في دخول العلماء لهذا المجلس انكم قد خالفتم القانون؟ فأقول كان ذلك مني جاريا على القاعدة المعقولة بان لا يقدم المفضول على الفاضل وأما ما راوا من تنزيههم على هاته الخطة فاني ما كنت قائلا به اذ لا يوجد في القانون ما يدل عليه وكنت اذ ذاك اعددتهم لمثل هذا الموقف حتى لا يحتاج مثل جنابك لكلامي الطويل البارد كليل الشتاء فما العلم الا نقطة كثرها الجاهلون ولندفع أيضا فولك أليسوا من أهل المملكة أليس فيهم كامل في انسانيته أليس فيهم وجيه في الدنيا أليس فيهم واحد من الاعيان أليس فيهم من يؤتمن في الامور الدنياوية والله يقول ومن أهل الكتاب من ان تامنه الخ ... ثم قبل الخوض في الآية اناشدك أيها الشيخ بالرحم فاني قريبك وابن أبيك آدم ان لا تموه على أمثالي من الضعفاء بالآيات القرآنية وان لا تمس جانب الدين فانه ظرف دنيانا اذا انكسر بالتمام لا يبقى للمظروف مقر فابقه على انصداعه وثلمه ولا تزده على ما به اما غيرنا فظروف دينهم الدنيا على العكس منا وان كان ما تراه أتيًا . فليكن ذلك على غير يدك لا تنبه القطة النائمة كما في بعض امثال الفرنج ثم كاني بك تسمع من الطلبة في المدارس اذا بلغهم استشهادك بالآية يقول قال البيضاوي في تفسيرها ومن أهل الكتاب من ان تامنه بقنطار يؤدّه إليك كعبد الله ابن سلام استودعه قريشي ألفا ومائتي وقية ذهباً فأدّاها اليه . ومنهم من إن تامنه بدينار لا يؤدّه إليك . كَفَنَتْ حَاص ابن عَازُورًا . استودعه قريشي دينارا فجحدته وقيل المأمون على الكثير النصارى والخائنون في قليل اليهود ومن القسم الاول صاحب هذا الكرسي الذي اشترت إليه ويقول ناك آخر ما شاء الله كأن الشيخ لم يطالع تفسير الثعالبي القائل ان مذهب اليهود انه يحل قتل كل من خالفهم في الدين . واخذ ماله ويقول آخر : انا لله وانا اليه راجعون هذا تفسير خفي بين أيدينا وهو يقول أهل الامانة منهم الذين اسلموا وقد ألم الامام الرازي بوجوه تأويل الآية ونص عبارته أن في الآية ثلاثة أقوال :

الاول ان أهل الامانة منهم الذين اسلموا اما الذين بقوا على اليهودية فهم مصرون على الخيانة لان مذهبهم يحل قتل كل من خالفهم في الدين وأخذ ماله .

الثاني ان أهل الامانة منهم النصارى واهل الخيانة اليهود .

الثالث قال ابن عباس اودع رجل عبد الله بن سلام ألفا ومائتي أوقية ذهباً فأدّاها إليه واودع آخر فنحاصا اليهودي ديناراً فخانه فترلت الآية فازت ترى ان هذه التفسير لا يساعد استشهادك شيء منها ويقول آخر لا حول ولا قوة الا بالله كيف يعتبر في الاستشهاد هذه الآية ولا يعتبر قوله تعالى لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود الا تراني سيدي ناصحك ثم اذا وجدت ممن لا يعرف من ابواب الجدل الا ارخاء العنان مثلى يقول لك هب انك فهمت الآية على ظاهرها فلا يلزم من وجود الامين في الجنس وجوده في حاضرة تونس وعلى فرض وجوده في نفس الامر بتونس فمرجع الامانة للباطن الذي استأثر الله بعلمه فرجع الامر إلى لزوم التجربة حتى يتبين كما تبين صاحب هذا الكرسي والله يعلم المفسد من المصلح اما ترى من لزوم اليهود في هذا المجلس باعتبار انه ينظر في حكم مجلس التحقيق اذا كان الحكم في جناية شديدة على يهودي فلو رفعت هاتئنا النازلة للمجلس الاكبر فكيف العمل فيها ؟ فجواب ذلك ان المجلس الاكبر ليس بمجلس ولا حكم الا في مجلس حكم كما في فصل 90 من قانون الدولة وفي الفصل 60 منه يقول : ويقبل أي هذا المجلس شكاية المحكوم عليه من مجلس التحقيق ليطبق الحكم على القانون اذا كانت النازلة في جناية الخ ... فحسبه تطبيق الحكم وفي الفصل الذي بعده يقول : وان رأى مخالفة يرجع النازلة لمجلس التحقيق ويبين له وجه المخالفة ليعيد النظر فان حكم بما حكم به أولاً ولا تجتمع اعضاء المجلس الاكبر كلهم ولا يتخلف الا من له عذر وما يقع عليه اتفاق الاكثر يمضي حكم غيره ولا يقال هو الذي حكم في النازلة بل ينسب الحكم للاول بدليل انه لا ينقض

اجتهاده اما اذا نقض حكمه لتبين مخالفة للقانون فهو يحكم بحكم مستأنف غير ما حكم به الاول وفي هاته الحالة يكون مجلس حكم والتي سلمنا ان المجلس الاكبر يصير في احدى حالتيه مع مجلس التحقيق مجلس حكم لكن لا يستلزم ذلك لزوم وجود عضو يهوديه وبيانه ان اليهودي اما ان يكون في مجلس التحقيق محكوما عليه أو محكوما له وفي كل . اما ان تكون الجناية مالية أو بدنية فان كانت مالية فانها تقف عند مجلس التحقيق ولا ترفع لهذا المجلس اصلا . وان كانت بدنية فان امضى المجلس الاكبر حكم التحقيق فقد تبين تمام الحكم في مجلس التحقيق المشتمل على عضو اليهود وان لم يمضه ونقضه بعد اعادة النظر فان صار اليهودي محكوما له فلا كلام له في إحضار عضو اليهود وان صار محكوما عليه فلا يتصور الا كونه محكوما عليه بسقوط حجته على الجناية . والقانون لم يلتزم له بحضور عضو اليهود الا في صورة الحكم عليه بعقوبة ، كما هو مصرح به في القاعدة السادسة عن عهد الامان بقوله : ان مجلس النظر في الجنايات اذا كان الحكم فيه بعقوبة على احد من أهل الذمة يلزم ان يحضر من بعينه من كبرائهم تانيسا لنفوسهم الخ ... والحاصل ان هذه التي التزم بها القانون فيها باحضرار عضو اليهود عند صدور الحكم لا بد أن يكون نظر المجلس الاكبر فيها مسبقا بحكم احد المجالس المشتملة على عضو اليهود وانما وظيفة هذا المجلس حفظ القوانين الكلية لا سماع الدعاوى الشخصية فاذا تأملت رعاك الله فيما قررناه تبين لك السر في عدم ادخال عضو اليهود بالمجلس الاكبر من أول تركيبه اذ صاحب القانون اعلم بمقاصده وصاحب البيت ادرى بالذي فيه وبالذي قدمناه ظهر اندفاع قولك أيضا فان أتينا بركني اليهود من مجلس الجنايات والتحقيق يقول اليهودي انما شكوت من حكمها ثم لو ابدلته سيدى بقولك يقول اليهودي ان الركنين المذكورين كم يحكما على وانما مخالفان في هذا الحكم لكان اولى . ألم تعلم ان الحكم للغالب ولا عبرة لمخالفة العضو وانما العضو بمنزلة الشاهد يضع خطه في الدعوى والجواب وفيما حكم به الاكثر والحكم يقع على رؤوس الاشهاد

ووراء تسطيره النظر في وقوع العدل أو عدمه للعامة وللمجلس الاكبر الحافظ
للقوانين واما قولك وان أتينا بغيرهما يقول المحكوم عليه لم يتوفر في هذا
الحاكم شرط الحكم من كونه لا يخشى عزلا الا عن جناية فصدور مثله من
مثلك عجيب . اما أولا فالعزل فرع الولاية ولا ولاية لهذا المجلوب سلمنا ان
له ولاية لكنها موقته بانفصال النازلة الجزئية والحاكم اذا انقضت مدة تحكيمه
لا يقال له معزول والا فيلزم ان لا يتم بهذا المجلس الكريم حكم لأن بقاء
العضوية فيه لا يتجاوز خمس سنين ثم من اين يؤخذ من القانون ان للمحكوم
عليه ان لا يرضى بحكم من يعتريه العزل اذ لو تم ذلك لما نفذ حكم من
المجلس في العامين الاولين . لان كُلاً من الاعضاء معروض للعزل اذا تبين
قصوره ، وكذلك مجلس الضبطية فإنه لو كان التأمين من العزل شرطاً لنفوذ
الحكم لكان للمحكوم عليه في المجلس المذكور ان لا يرضى بذلك الحكم استنادا
لما ذكرت اذ للدولة تبديل اعضاء المجلس المذكور متى شاءت وأما ثانيا فانما
يخشى العزل من كان له نفع في الولاية وفرضك لا يقتضي ذلك واما الجواب
عن المقصد الرابع وهو اقتضاء السياسة لدخول اليهود في هذا المجلس اذ بذلك
تنقاد الاجانب في نظر الشيخ للدخول تحت احكام البلاد فاني أقسم لك بالله
ان اولئك الاجانب الذين طلبتهم للدخول تحت أحكام بلادك ونصبت لهم
هذا الشرك المنسوج بخيط العنكبوت اعرف بالارض ومن عليها منك ومنى
ولا يعزب عنهم أمر مسلمى بلادك ويهود يها ولا يقيسون حالهم مع يهود
ارضهم بحالنا مع يهود ارضنا فان يدخلوا تحت أحكام بلادك فانما يدخلون
حين يرون منك الانصاف والعدل في المسلمين وغيرهم لا لوجود اليهود في
مجالس الاحكام نعم اذا لم يروا الانصاف مع غير المسلمين تزداد نفرتهم
من أحكام البلاد أي ازدياد والذي لا يرضى بحكمك لا يرضى بحكم من
هو تحت ذمتك وقهر سلطانك من باب اولى وانتما الاثنان اجنيان عن دينه
بل ربما تزداد نفرتهم منا اذا راوا من كان بالامس في الحضيض انتقل اليوم
إلى الاوج دفعة بدون السير الطبيعي فان من حذق الطبيب ان لا يدخل الجامد

بالبرد إلى سخن بيوت الحمام دفعة لكن ندع هذا كله وان كنت اوده وواجب
زيادة البيان فان الوقت قد ضاق عن الغرض فلنرجع إلى ما يكفي به في المقام
فنسأل جنابك ايها الفاضل أي دولة من دول الاجانب تنكر علينا وتزداد نفرتها
منا عند عدم قبول اليهود في هذا المجلس؟ أدولة اسبانيا التي لم يصح عندنا إلى
الان هل رضوا بدخول اليهود إلى أرضهم أم لا . أم دولة ايطالية ولم نسمع
بوجود يهودي له رتبة سياسية فيها إلى الان أم دولة النمسا ودول ألمانيا التي
لم تنزل يهودهم إلى تاريخ أمس ممتازين بلبس البرانيط الصفر - أم الدولة
الانكليزية وأهل القمرة منهم منذ أكثر من خمسين سنة في أشد النزاع هل
يقبلون اليهودي عضوا في مجلسهم الاكبر أم لا . أم تطلب منا الدولة الفرنسية
ان تكون نهايتهم بدايتنا فما يكون جوابهم اذا فاخرناهم بقولنا قد بلغنا في
ظرف أشهر إلى الغاية التي لم تبلغوها الا في ظرف مئتين من السنين بعد اراقة
دماء الوف من الادميين أتراهم بجينونك بغير جواب النخلة لعريش اليقطين
حين قال لها أيتها النخلة ها أنا قد بلغت في قدر ثلاثة أشهر إلى ما بلغت إليه
في ثلاثمائة سنة بقولها طلعة العريش ليست طنعة من يعيش .. وأنا ألتمس من
جنابك أن توازن لي (بين يهود الدول المذكورة وبين يهود بلادنا بعد أن
أقسم لك على اني لا أريد بهذا محاسن البعض ومساوى الآخرين ولا أني أريد
الوقوع في عرض أحد بقصد هضمته وأعيد نفسي بالله من سوء هذا المقصد
فاني أرى اليهود بفرنسا وبلاد الانكليز غير متميزين عن غيرهم الا في العبادة
فيأكلون مما يأكل غيرهم ويشربون مما يشربون وكثيرا ما يتصاهرون ولا
تجد منهم من ينتسب للدين بل كل منهم يقول هو فرنساوي أو انكليزي
يدافع عن العرض والوطن جاريما منه حب الوطن والبلاد مجرى الدم
فهل يخرج من قلبه الا بخروجه ولا يؤمل الادوام ملك وطنه وبقاء سلطانه
ولا أرى هذه المزايا موجودة الان في يهود بلادنا لكن بوجود سيدنا دام علاه
ووجود عدله بهم يرتجسي أنهم سوف يكسبونها ويسرى حب الوطن في
جميع القانون وتكون اليد في المصلحة واحدة والقلوب على جميلها متعاضدة

وحينئذ قد يرخص لك ان تناضل في حقهم بمثل هذه المناضلة أما الان فهم معك على الضد في جميع الامور فكل من ظهرت عليه منهم آثار الثروة يقابل نعمة الوطن بالنفرة منه والجفوة ويتزينون بزي الاجانب كي لا تجري عليهم أحكام البلاد في سائر المطالب وينسبون أمرهم على الضابطية أو يلتمسون وجها في الخروج عن حكم البلاد بالكلية إلى غير ذلك من الامور التي لا نظن جنابكم يجهلها ولو لا قولك في اثناء ذلك المكتوب كيف لا تقبلهم خدمة لمملكة هم من أهلها يعود صلاحها وضررها عليهم كما يعود على المسلمين لكنت أسأل امانتك واعتقادك متوسلا بما تدين الله به هل تراهم والحالة هذه يختارون البقاء تحت ضعفك اذا أمكنهم العدول إلى قوة غيرك أم هل تراهم اذا راوا تجارة أو لهوا الا ينفضون من حولك أم هل تراهم أن ظهر مسيحيهم يراعون حقا لوطنك ؟ كلا وربّي العلى اريد حياته ويريد قتلي . ولئن كان مرادك التأليف بين المتنافرين والجمع بين المتضادين فاعتبر قول سيدنا عمر ابن الخطاب رضي الله عنه في بعض رسائله إن أكيس الكيس من منح الشارد تألفا وقارب اليعيد تلفظا ووزن كل امره بميزانه ولم يخلط خبره بعيانه ولم يجعل فتره مكان شبره ولا خير في معرفة مشوبه بنكره وفي علم مستعمل في جهل والله يقول الحق وهو يهدي السبيل كتبه العبد الحقير أمير الامراء حسين رئيس المجلس البلدي واحد اعضاء المجلس الاكبر في أوائل شهر محرم الحرام فاتح شهور سنة 1872 والسلام .

عدا ما ذكر . انظر ملفه بالوثائق القومية بالرئاسة عدد 11 - 97 - الرائد التونسي عدد 3 ، 4 ، 5 ، 6 ، 8 صفوة الاعتبار ، لبيرم ج 2 - ص 60 .